الآثار الإسلامية في مكة المشرفة

(تحدثت بهذه الكلمة في (جامعة أم القرى) بعد مغرب ليلة الاربعاء ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢ هـ).

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اسمحوا لي أيها الإخوة — بتقديم الشكر لهذه الجامعة الكريمة، ممثلة في مديرها الأستاذ الجليل الدكتور راشد بن راجح، واخوته المشرفين على شؤونها، لإتاحتهم فرصة الاشتراك في المذاكرة بجوانب تتصل بتاريخ هذه البلدة المشرفة، مذاكرة المستفيد، المستعيد لما هو معروف لديكم. لا (محاضرة) العالم بجوانب مجهولة من المعرفة، تحتاج إلى عرض وإيضاح.

فالصفوة الممتازة من علماء هذه البلدة الممثلة في علماء جامعتها هم أعلم بتاريخها إذْ: (أهْلُ مكة أدْرَى بِشعابها).

ولكيلا أوصَم بما لا أتَّصِفُ به — أحب أن أوضحَ لكم أيها الاخوة — أنني من عُشَّاق الآثار، ومن الدعاة إلى المحافظة عليها، سواء ما كان منها من مصادر التاريخ القديم، أو مما تحدث مشاهدته عظةً أو عبرة، أو تُثير في النفس عاطفة ذكرى حَدَثٍ جليل لعظيم من العظماء، أو الأسوة الحسنة بصاحب الأثر.

Scanned by CamScanner

فلقد نشرتُ قبل نصف قرن تقريباً ترجمة لمؤرخ مكة تقي الدين الحسني الفاسي (٨٢٣هـ) أشرت إلى استقرائه للآثار المكتوبة في المساجد والأربطة وعلى شواهد القبور ، وتمنَّيت أن تُصَوَّر تلك الكتابات — بعد أن تُجمع أصولها وتصان .

وكررت هذه الدعوة حين تحدثت عن كتاب « نور القبس » في مجلة « العرب » السنة الأولى ص ٤٥٩ الذي حققه المستشرق الألماني (رودلف زِلْهايم) وكان مما قلت : وأمر يثير الغرابة : لقد كتبَ هذا العالم في المقدمة عندما تحدث عن المُختَصِرِ الأوَّل لهذا الكتاب بشير بن حامد فقال : (لقد هداني حسنُ الطالع في العثور على كتابات مقبرة باب المِعْلى في مكة ومنها حجر قبر بشير بن حامد وسوف أكتب إن شاء الله دراسةً عنها في مقالة قادمة) .

هؤلاء الباحثون الغربيون يحرصون على آثار بلادنا ، وكتاباتنا المنقوشة على الأحجار ، بينما يوجد فينا من يكسرها ، ونحن ندرك حرمةَ الكتابة على القبور ، ولكنَّ هذه الأحجار التي فيها كتابات تاريخية من الخير أن ننقلها إلى موضع أمين ، نحفظها فيه للدراسة ، دراسة تطور الخط العربي ، ودراسة المذكورين فيها من الأعلام ، كما نصون الكتابات الأخرى التي نشاهدها في صخور الجبال منتشرة هنا وهناك .

ولما أنشأتُ مجلة « العرب » في شهر رجب سنة ١٣٨٦ هـ — دعوت الأستاذ عبدالله عريف أمين العاصمة — رحمه الله — لكتابة بحث عن خطط مكة وعن تطورها العمراني في الماضي ، مع الإشارة إلى أبرز آثارها برسم مُصَوَّرٍ (خريطة) وذلك قبل أن يطرأ عليها هذا التطور العظيم الذي كاد أن يُعفِّيَ معالم تاريخها القديم .

ولكنه — رحمه الله — اعتذر بمقال نشرته جريدة « البلاد السعودية » بأن حمداً يريد مِنِّي ما أتمنَّى أن يقوم به من هو أقدر مني عليه .

إنني أنظر إلى الآثار — عامة — نظرة المتعظ المستفيد ، الذي يحاول أن يدرك حقيقة هذا الأثر ، متجرداً من كل ما لا يتصل بالمعرفة .

الآثار — أيُّها الأخوة — في هذه البلدة المشرفة نوعان :

مشاعر العبادة المقدسة ، في مكة ومِنَى ومزدلفة وعرفات ، ومواقيت الحج

Scanned by CamScanner

المكانية ، وقد تكفل الله بصيانتها وحفظها ، لارتباطها بما تعبّد عباده بالقيام به من أنواع العبادة .

ونوع آخر من الآثار ، له ارتباط بحياة من عاش على تراب هذه البلدة الطاهر ، كالمساجد والموالد والقبور والأمكنة ، وهذا ما سأحاول حصر الحديث حوله ، متوخياً الإيجاز ، مشيراً إلى أمرٍ هامٍ وثيق الصلة به . بل هو أساس يقوم عليه هذا الحديث عن هذا النوع من الآثار .

هو أن سلفنا الصالح — في القرون الثلاثة المفضلة الأولى — ما كانوا يهتمُّون بالمحافظة على آثارهم ، ولا يعتنون بتحديد مواقعها أو أزمانها ، بل كانوا — في كثير من الأحيان عندما يخشون المبالغة في تعظيمها يسعون لإزالتها ، كما فعل عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — حين رأى الناس يتنابون بالزيارة شَجَرَة الرِّضوان ، التي بايع المسلمون المصطفى — عليه الصلاة والسلام — تحتها ، وأنزل الله في تلك البيعة قوله عز وجل : (لَقَد رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمِنِيْنَ إذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) فأمر الفاروق — رضي الله عنه — بقطعها .

وقد أوفى المحققون من العلماء هذا الأمر إيضاحاً وتحقيقاً .

وتحسن الإشارة أيضاً — إلى أن لتساهل العلماء في رواية ما يتعلق بفضائل المواضع أثراً كبيراً في حدوث كثير من الآثار ، كما أنَّ التنافس بين أهل المدن — في بعض الأحيان زاد تلك الفضائل كثرة وشهرة ، بوسائل مختلفة .

ولا أريد التوسع في الحديث عن هذا ، وحسب القارىء أن يستعرض جوانب منه في تشابه كثير من الآثار في المدينتين الكريمتين ، ككثرة المساجد المنسوبة إلى بعض المتقدمين ، ونسبة كثير من القبور لبعض المشاهير في مقبرتي المعلاة والبقيع ، بل حتى في الآبار ، كبئر زمزم — مثلاً — .

الموالد في مكة المكرمة :

لعل أشهرَ هذه المواضع وأقدمها المكان الذي يَرَى كثيرٌ من متقدمي العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم وُلِدَ فيه ، الواقع في شِعْب بني هاشم بقرب سوق الليل ، وهو مكان

Scanned by CamScanner

لا يزال معروفاً ، مع كثرة ما طرأ عليه من التغيير. غير أنَّ نِسبته إلى الرسول — عليه الصلاة والسلام — محلُّ شكٍّ لدى كثير من العلماء .

ولعل القائلين بصحة تلك النسبة اعتمدوا على القرائن في ذلك ، فالرسول عليه الصلاة والسلام من أهل مكة — لا شكَّ في ذلك — وبنو هاشم عشيرته الأقربون كان ربعُهُم معروفاً في الشِّعْبِ الذي عُرِف بهم ، ثم بأبي طالب أحدهم ، والدار التي يقع فيها المولد كانت في ذاك الشعب ، وكانت للرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما هاجر استولى عليها ابنُ عَمِّهِ عَقِيل بنُ أبي طالب — كما في الحديث الشريف : «وهَلْ تَرَكَ لنا عقيل من دار»؟ مِنْ هنا قال بعض العلماء — ومنهم ابن القيِّم في كتاب : «زاد المعاد» : (لا خلاف في أنه صلى الله عليه وسلم وُلِد بجوف مكة) .

غير أنَّ مِمَّن تقدم ابن القيم من العلماء من ذكر الخلاف في ذلك ، فقد نقل مؤرخ مكة تقيُّ الدين الحسنيُّ الفاسيُّ في «شفاء الغرام» وفي مقدمة «العقد الثمين» أن مُغُلطاي العالم الحنفي المصري (٦٨٩/ ٧٦٢ هـ) وهو من حفَّاظ الحديث ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم وُلِد بِعُسفان .

ولِمُغُلطاي مؤلف في السيرة في مكتبة الحرم المكي هو كتاب «الإشارة الى سيرة المصطفى ، وتاريخ من بعده من الخلفاء»[1] ورد فيه : (ولد — صلى الله عليه وسلم — بمكة ، في الدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ، ويقال : بالشِّعب ، ويقال بالرَّدم ، ويقال : بعسفان) .

وعلى القول بأنه — عليه الصلاة والسلام — ولد في مكة ، فهناك اختلاف بين العلماء في تحديد الموضع الذي وُلِدَ فيه ، فقد ذكر محمد بن محمد بن سيد الناس (٦٧١/ ٧٣٤) في كتاب «عيون الأثر في سيرة سيد البشر» ما نصه : (وولد في الدار التي تدعى لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ، وقيل : انه ولد في شعب بني هاشم) — كذا أورد الخبر بصيغة : (قيل) وقال الإمام السُّهَيْلِيُّ (٥٠٨/ ٥٨١) في كتاب «الروض الأنف» : (وولد بالشِّعب ، وقيل : بالدار التي عند الصفا ، وكانت بعد لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ، ثم بنتها زُبَيْدَة مسجداً ، حين حَجَّت) .

Scanned by CamScanner

وأورد تقيُّ الدين الفاسيُّ هذا القول واستغربه فقال : (مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، بسوق الليل وهو مشهور ، وذكر السُّهَيليُّ في خبر مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ما يستغرب) ثم أورده وأضاف : (وأغرب منه ما قيل من أنه صلى الله عليه وسلم ، ولد في الرَّدم ، رَدم بني جمح) .

ويقصد الردم الذي ردم في عهد عمر بن الخطاب — رضي الله عنه سنة ١٧ — لصيانة المسجد الشريف من دخول السيل ، وموقعه في أعلى المُدَّعا — الموضع الذي ذكر بعض العلماء أن المحرم يقف فيه للدعاء ، إذ منه كانت تشاهد الكعبة المطهرة .

وهذا الاختلاف في الموضع الذي وُلِدَ فيه النبيُّ — صلى الله عليه وسلم — يحمل على القول بأن الجزْم بأنه الموضع المعروف عند عامة الناس باسم المولد لا يقوم على أساس تاريخي صحيح . وهذا أمر أوضحه الشيخ عبدالله العياشي (١٠٣٧/ ١٠٩٠ هـ) في رحلته فقال ما نصه : وقد عُلِم من كتب السير ما وقع من الاختلاف في مولده (ص) هل هو بمكة أو بالأبواء ، وعلى أنه بمكة فقيل بالشِّعْبِ وقيل بالمُحَصَّب الى غير ذلك من الأقوال .

ولا أدري من أين أخذ الناس تعيين هذا المحل بالخصوص ، اللهم إلا أن يثبت أنَّ تلك دار والده أو جده (ص) فيترجح القول بأنه في مكة في قضية عادية ، وهي أنَّ ولادة الإنسان في الغالب في منزل والده . وإن أُريد بالشِّعْب شِعْب أبي طالب الذي انحاز إليه مع بني هاشم وبني المطلب في قضية الصحيفة ، فلا يبعد ذلك ، لأنَّ هذه الدار قريبة من الشعب من أسفله .

والعجب أنهم عيّنوا محلاً من الدار مقدار مضجع ، وقالوا له : موضع ولادته (ص) ويبعد عِنْدي كُلَّ البعد تعيين ذلك من طريق صحيح أو ضعيف ، لما تقدم من الخلاف في كونه في مكة أو غيرها ، وعلى القول بأنه فيها ففي أي شعابها ! ! وعلى القول بتعيين هذا الشِّعب ففي أي الدور ؟! وعلى القول بتعيين الدار يبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار ، بعد مرور الأزمان والأعصار ، وانقطاع الآثار .

والولادة وقعتْ في زمن الجاهلية ، وليس هناك من يعتني بحفظ الأمكنة ، سيما مع

Scanned by CamScanner

عدم تعلق غرض لهم بذلك ، وبعد مجيء الإسلام فقد عُلِم من حال الصحابة وتابعيهم ضعفُ اعتنائهم بالتقييد ، بالأماكن التي لم يتعلق بها عمل شرعي ، لصرفهم اعتناءهم — رضي الله عنهم — لما هو أهمُّ من حفظ الشريعة ، والذبّ عنها بالسنان واللسان ، وكان ذلك هو السبب في خفاء كثير من الآثار الواقعة في الإسلام ، من مساجده عليه السلام ، ومواضع غزواته ، ومدفن كثير من أصحابه ، مع وقوع ذلك في المشاهد الجليلة ، فما بالك بما وقع في الجاهلية ، لا سيّما ما لا يكاد يحضره أحد إلا من وقع له ، كمولد علي ومولد عمر ، ومولد فاطمة — رضي الله عن جميعهم — فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة . فيقولون : هذا مولد فلان ، هذا مولد فلان ، وفي ذلك من البعد أبْعَدُ من تعيين مولده صلى الله عليه وسلم ، لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده (ص) فقد يتنبّه بعضُ الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات ، وان كانوا أهل جاهلية . وأما مولد غيره مِمَّنْ ولد في ذلك العصر فتكاد العادة أن تقطع بعدم معرفته ، إلا أن يَرِدَ خبر عن صاحب الواقعة بتنبّهه أو أحد من أهل بيته . انتهى كلام العياشي وهو شامل لجميع الموالد المنسوبة لمن عاش في عهد المصطفى — عليه الصلاة والسلام — فلا داعي للحديث عنها .

المساجـد :

وفي مكة مساجد ، كانت تُقْصَد للزيارة ، منها : مسجد بأعلى مكة عند الردم — المُدَّعا — يدعى مسجد الراية ، يقال إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم — صلى فيه ، وركز رايته حين فتح مكة بقربه .

ومسجد عند المُدَّعا — أيضاً — على يمين الهابط إلى مكة ويسار الصاعد منها ، ينسب الى النبي صلى الله عليه وسلم ، انه صلى فيه المغرب .

ومسجد المُخَبّا في سوق الليل بقرب ما يُزْعم بأنه المولد يقال بأن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يختبىء فيه من الكفار .

ومسجد بأسفل مكة بقرب بركة الماجن ، ينسب لأبي بكر الصديق — رضي الله عنه — ومسجد الجن ، ويسمى مسجد البيعة ، ومسجد الحرس ، ومسجد الإجابة في

Scanned by CamScanner

شعب بقرب ثنية اذاخر.

وهناك مساجد أخرى ، وكلها وردت — منسوبة له صلى الله عليه وسلم أو لأحد من أصحابه — في أخبار لا تثبت أمام النقد ، من حيث صحة نسبتها الى من نسبت إليه .

وكذا المساجد المذكورة في منى ، باستثناء مسجد الخيف .

وهذا لا ينافي قدم تاريخ إنشاء تلك المساجد ، واعتبارها من الأماكن القديمة فيدرس تاريخها على هذا الأساس ، ويُهْتمُّ بها بصفتها أماكن للعبادة .

أماكن أثرية :

ومن أشهر المواضع الأثرية جبلا حِرَاء وثَور — من جبال أُمِّ القرى — ففي غار الأول كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد ، وفيه نزل عليه الوحي .

وفي غار الثاني اختبأ هو وأبوبكر حين هاجرا من مكة ، وفيه نزل قوله تعالى : «إلاَّ تَنْصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَه الله ، إذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْن ، إذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، إذْ يَقُول لِصَاحِبِهَ لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنا» .

ومن أشهر المواضع الأثرية قرب مكة وادي حُنَيْن (بدْعان) أعلى وادي الشرائع ، الذي حدثت فيه الوقعة المذكورة في القرآن الكريم : «ويَوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أَعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُمْ ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُم شيئاً» الآية . وتحسن الإشارة الى التفريق بين موضعي حُنَيْنٍ وأوطاس ، حيث وقع من بعض المؤرخين ما يُفْهَمُ منه اعتبارهما موضعاً واحداً ، مع تغايرهما فأوطاس يقع شرق سلسلة جبال الحجاز ، أقرب المواضع المأهولة منه عُشَيْرة ، يقع غرب وادي العَقِيق ، على مقربة من البركة شمالها بميل نحو الغرب .

القبـور :

لا شكَّ أن مقبرة المعلاة في مكة المشرفة حوتْ من رُفات الأجسام الطاهرة من المؤمنين ما لم تحوه مقبرة من حيث الفضل ، باستثناء مقبرة البقيع .

وقد ألَّفَ الفيروز آبادي صاحب «القاموس المحيط» رسالة دعاها : «إثارة الْحَجُون ، لزيارة الحَجُون» ذكر الصحابة المدفونين في تلك المقبرة ، ونظم هذه الرسالة

Scanned by CamScanner

علي بن أبي بكر الصايغ ، أحد علماء مكة في صفر سنة ١٢٨٧ — بأرجوزة سماها : « اللؤلؤ المكنون ، في ذكر أسماء أهل الحجون » وذكر أنَّ عدد الصحابة المدفونين في مقبرة الحُجُون ثمانية وثلاثون رجلاً وسَبْعُ نسوة ، سرد جميع أسمائهم نقلاً عن رسالة الفيروز آبادي ، التي تضمنت تراجم أولئك .

ولكن مما تجب ملاحظته :

١ — الاختلاف في موقع الحجون الوارد في كتب المتقدمين ، فقد ذكر الفاسيُّ أنَّ الحُجُون جبل على يسار الداخل إلى مكة ، ويمين الخارج منها الى منى — على ما ذكر الأزرقي والفاكهي ، وهما أقدم مؤرخي مكة ممن وصلت إلينا مؤلفاتهم .

وإذنْ فهو مخالف لما عليه الناس من أنَّ الحجون الثنية التي يهبط منها الى مقبرة المعلاة .

وأضاف الفاسيُّ : ولعل الحجون على مقتضى كلام الأزرقي والفاكهي والخزاعي هو الجبل الذي يقال : فيه قبر ابن عمر — رضى الله عنهما — أو الجبل المقابل له ، الذي بينهما الشعب المعروف بشعب العفاريت — انتهى .

وصاحب « إثارة الحجون » أراد ما عليه الناس الآن .

ويرى مؤرخ مكة في عصرنا الأستاذ الشيخ أحمد السباعي أن ثنية الحجون تقع في الجبل المتصل بشعب عامر ، وأن اطلاق اسم الحجون على ما هو معروف عند الناس الآن حدث بعد الاسلام[٣] .

٢ — ليس كل من مات في مكة قبر في مقبرة الحُجُون — كما يفهم من رسالة صاحب « القاموس » إذ لمكة عند ظهور الإسلام مقابر غير مقبرة الحجون — التي هي مقبرة المعلاة — منها : المقبرة العليا بين المعايدة وثنية الخرمانية — ثنية اذاخر — وكان يدفن فيها في الجاهلية وصدر الإسلام .

ومنها : مقبرة المهاجرين ، بالحصحاص ، بين فخٍّ والزاهر (الشهداء) .

ومنها : مقبرة الشُّبيكة ، وكانت تعرف بمقبرة الأحلاف ، بينما تعرف مقبرة المعلاة بمقبرة المطيبين .

Scanned by CamScanner

لهذا لا يمكن الجزم بأنَّ منَ توفي في مكة مقبور بمقبرة المعلاة (الحجون).

٣ ــ نص المتقدمون من مؤرخي مكة على عدم معرفة قَبْرِ أحَدٍ من الصحابة الا قبر ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ــ في سَرِف.

قال الفاسيُّ: ولا أعلم في مكة، ولا فيما قرب منها قبر أحد ممن صحب النبي صلى الله عليه وسلم سوى قبر ميمونة، لأن الخلف يأثره عن السلف، وقال ابن ظهيرة في «الجامع اللطيف»: عن مقبرة المعلاة: لما حوته من سادات الصحابة والتابعين، وكبار العلماء والصالحين، وإن لم يعرف قبر أحد من الصحابة تحقيقا الآن. انتهى.

وفي عصرنا ــ بل قبله بنحو ستة قرون ــ عُرِفَ قَبْر أمِّ المؤمنين خديجة ــ رضي الله عنها ــ معرفة قائمة على أساس من الجهل، إن صحَّ أن للجهل أساساً، فشُيِّدَت قبة عظيمة تحمل ذلك الاسم الطاهر، ثم أقيم بجوار تلك القبة في أول القرن الحادي عشر قُبَّتان تحمل إحداهما اسم (عبد المطلب) وتعرف الأخرى باسم قبة (أبي طالب).

وارتباط هذه الأسماء الثلاثة بحياة المصطفى ــ عليه الصلاة والسلام ــ أضفى عليها هالة من الإجلال، حتى اعتقد كثير من الجهال صحة وجود قبر خديجة وقبر عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ــ وقبر أبي طالب ــ عمه، وهو اعتقاد خاطيء ــ كما أشرت الى ذلك في كلمة لي بعنوان: (خرافة قبة اليهودية)[٤] قلت فيها: من الأمور التي لا حقيقة لها ما يصبح بمرور الزمان ذا تاريخ تتناقله الأجْيال، حتى يُعَد بطول الزمن وبتناقل ذكره بين الناس من الأمور الثابتة التي لا يسوغ إنكارها.

فقبر أم المؤمنين خديجة ــ رضي الله عنها ــ كان مجهولاً لدى مؤرخي مكة حتى القرن الثامن الهجري أي طيلة سبعة قرون بل تزيد، ثم أصبح معروفاً محدَّد المكان، في القرون الخمسة الماضية حتى يومنا هذا، بعد أن رأى أحد العارفين ــ في المنام[٥] ــ كأنَّ نوراً ينبعث من شُعْبة النور، في مقبرة المعلاة، ولما علم أمير مكة في ذلك العهد بخبر تلك الرؤيا أمر ببناء قبة فوق المكان الذي رأى ذلك العارف أنَّ النور ينبعث منه، جازماً ذلك الأمير أنَّ ذلك المكان ما هو سوى قبر خديجة ــ رضي الله عنها ــ[٦].

ويورد المرجاني في كتاب «بهجة النفوس والأسرار» الخبر باختصار ويعقب عليه:

Scanned by CamScanner

لهذا لا يمكن الجزم بأنَّ منَ توفي في مكة مقبور بمقبرة المعلاة (الحجون).

٣ ــ نص المتقدمون من مؤرخي مكة على عدم معرفة قَبْرِ أحَدٍ من الصحابة الا قبر ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ــ في سَرِف.

قال الفاسيُّ: ولا أعلم في مكة، ولا فيما قرب منها قبر أحد ممن صحب النبي صلى الله عليه وسلم سوى قبر ميمونة، لأن الخلف يأثره عن السلف، وقال ابن ظهيرة في «الجامع اللطيف»: عن مقبرة المعلاة: لما حوته من سادات الصحابة والتابعين، وكبار العلماء والصالحين، وإن لم يعرف قبر أحد من الصحابة تحقيقا الآن. انتهى.

وفي عصرنا ــ بل قبله بنحو ستة قرون ــ عُرِفَ قَبْر أمِّ المؤمنين خديجة ــ رضي الله عنها ــ معرفة قائمة على أساس من الجهل، إن صحَّ أن للجهل أساساً، فشُيِّدَت قبة عظيمة تحمل ذلك الاسم الطاهر، ثم أقيم بجوار تلك القبة في أول القرن الحادي عشر قُبَّتان تحمل إحداهما اسم (عبد المطلب) وتعرف الأخرى باسم قبة (أبي طالب).

وارتباط هذه الأسماء الثلاثة بحياة المصطفى ــ عليه الصلاة والسلام ــ أضفى عليها هالة من الإجلال، حتى اعتقد كثير من الجهال صحة وجود قبر خديجة وقبر عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ــ وقبر أبي طالب ــ عمه، وهو اعتقاد خاطيء ــ كما أشرت الى ذلك في كلمة لي بعنوان: (خرافة قبة اليهودية)[٤] قلت فيها: من الأمور التي لا حقيقة لها ما يصبح بمرور الزمان ذا تاريخ تتناقله الأجْيال، حتى يُعَد بطول الزمن وبتناقل ذكره بين الناس من الأمور الثابتة التي لا يسوغ إنكارها.

فقبر أم المؤمنين خديجة ــ رضي الله عنها ــ كان مجهولاً لدى مؤرخي مكة حتى القرن الثامن الهجري أي طيلة سبعة قرون بل تزيد، ثم أصبح معروفاً محدَّد المكان، في القرون الخمسة الماضية حتى يومنا هذا، بعد أن رأى أحد العارفين ــ في المنام[٥] ــ كأنَّ نوراً ينبعث من شُعْبة النور، في مقبرة المعلاة، ولما علم أمير مكة في ذلك العهد بخبر تلك الرؤيا أمر ببناء قبة فوق المكان الذي رأى ذلك العارف أنَّ النور ينبعث منه، جازماً ذلك الأمير أنَّ ذلك المكان ما هو سوى قبر خديجة ــ رضي الله عنها ــ[٦].

ويورد المرجاني في كتاب «بهجة النفوس والأسرار» الخبر باختصار ويعقب عليه:

Scanned by CamScanner

(ولا كان ينبغي تعيينه على الأمر المجهول) .

ويدور الزمان فَيُصْبِحُ المكانُ وما حوله مقبرة للعظماء من أهل مكة فيقبر فيه في القرن الحادي عشر في سنة ١٠١٠ هـ عبد المطلب بن حسن بن أبي نُمَيٍّ ، ثم في سنة ١٠١٢ هـ يموت أحد أمراء مكة — ممن عرف بالظلم والجبروت — وهو أبو طالب بن حسن بن أبي نُمَيٍّ ، وتُبنى فوقه قبة تعرف بقبة أبي طالب ، بجوار قبة خديجة الخرافية وقبة عبد المطلب ، ويدور الزمان فيجهل أمر صاحبي القبة ، فتنشأ خرافة قبة عبد المطلب جدّ الرسول (ص) الذي مات في زمن الفترة ، وقبة أبي طالب بن عبد المطلب عمّ النبي عليه الصلاة والسلام ، الذي مات مشركا بنص القرآن الكريم .

ويُدَوَّنُ التاريخ تلكَ الخرافات الثلاث باعتبارها حقائق تاريخية ، وتتناقلها الأجيالُ الى يومنا هذا ، بل تزداد رسوخاً وقوة حين تَصَدَّى عالمٌ جليل من علماء العصر[٧] بكتابة سفر نفيس دعاه «في منزل الوحي» إذ تطغى عاطفة التدين على ذلك العالم حين يشاهد مقبرة مكة (المعلاة) فتنتابه الذكريات عمن ضَمَّتْ من أجساد عظماء الأمة خلال الثلاثة عشر قرناً وما فوقها من السنين ، وتنطلي عليه خرافة قبر عبد المطلب جدّ النبي عليه الصلاة والسلام وقبر أبي طالب عمه وقبر أم المؤمنين خديجة زوجة ، فيتقبل القول على عِلاَّته ، ويُرِيْحُ نَفْسَهُ من عناء البحث والتحقيق ، فيجري يراعه السيال بكتابة الصفحات التي يعدّد فيها أمجاد السادة الذين ضمّ تراب تلك المقبرة رفاتهم ، ويخص بالذكر منهم أولئك الثلاثة ، وينحي باللائمة على من أزال تلك القباب الخرافية .

وليت الأمر يقف عند هذا الحَدِّ ، بل إن الباحثين ممن جاؤوا بعد ذلك العالم اتَّخذُوا كتابَهُ مصدراً يُعْتَمَدُ عليه في آثار مكة وأخبارها ، بحيث أن إحدى المجلات[٨] الدينية تقوم بنشر كُتَيِّبٍ عن الحج في كل عام منذ بضع سنوات ، وتعدّد فيه من آثار قبور المعلاة الثلاثة القبور الخرافية .

وقل أن كتب عن هذه البلدة الكريمة أحدٌ من غير العارفين من أهلها — فلم ينظر إلى هذه الآثار ونحوها نظرة الواثق بصحة ما يقال عنها ، لِمُلامسَتِها للعواطف .

أما مثقفو هذه البلاد ، وأولوا الرأي فيها فهم يدركون أنَّها لا سَنَد لها من التاريخ ،

Scanned by CamScanner

وأن ما يروى عنها غير صحيح[٩] .

ومن المعروف أنَّ الآثار من الأسس التي تقوم عليها دراسة تاريخ الأمم ، والمحافظة على الثابت منها محافظة على جوانب من تُراث الأمَّةِ .

وأيّة أمَّةٍ لا تُعنى بتراثها تَنْفَصِلُ صِلَتُها بماضيها ، وتَفْقد من مميزاتها وخصائصها ما يبقي كِيَانها متميزاً ، ومتى فقدت الأمة ذلك فعليها العفاء ! !

وشكراً لكم أيها الأخوة :

حمد الجاسر

الحـواشي :

(١) رقمها (٨٧ سيرة) في ٦٧ ورقة ، مخطوطة سنة ٨١٠ — مصححة ومقابلة على الأصل المقروء على المؤلف — تنتهي بخبر قتل المستعصم سنة ٦٥٦ من قبل التتار .
ولمغلطاي كتاب آخر مطول في السيرة هو «الزهر الباسم ، في سيرة أبي القاسم» منه مخطوطة في مكتبة (ليدن) في (هولندا) رقمها في فهرس المخطوطات الشرقية (٣٧٠) .

(٢) أنظر مجلة «العرب» س ١٦ ص ٢٣٧ .

(٣) محاضرة ألقاها سنة ١٣٨٨ هـ في نادي الوحدة الرياضي بمكة بعنوان : (عبدالله بن الزبير صاحب فكرة في تاريخ مكة) «العرب» س ٢ ص ٨٦٥ .

(٤) «العرب» س ١٠ ص ٢٧٨ .

(٥) أنظر كتاب «البحر العميق في العمرة والحج الى بيت الله العتيق» لمحمد بن أحمد بن الضياء القرشي المكي الحنفي — ج ١ الورقة (٢٠) مخطوطة مكتبة الحرم المكي ، رقم (٤٠) فقه حنفي — فقد أشار الى هذا الخبر ، وأورده مفصلاً أحد مؤرخي مكة المتأخرين .

(٦) ذكر كثير من المؤرخين المتأخرين أن خديجة — رضي الله عنها — قبرت بمقبرة المعلاة ، وذكر التجيبي في رحلته أنه شاهد (سنة ٦٩٦ هـ) في طرف مقبرة المعلاة شعباً ذكر أن فيه قبر خديجة وقال : (وليس لها بالشعب المذكور قبر ظاهر ، ولكنهم يقولون إنها به والله أعلم) انتهى . ولهذا فإن المحققين من المؤرخين نصوا على أنه لا يعرف في مكة من قبور الصحابة سوى قبر أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها ، في سرف خارج مكة بقرب التنعيم ، وقبر عبدالله بن عمر رضي الله عنهما في ثنية اذاخر مما يلي باب المعلى (رحلة التجيبي ص ٣٣٩) والله أعلم .

(٧) هو الدكتور محمد حسين هيكل باشا — رحمه الله —

(٨) هي مجلة «الوعي الإسلامي» التي تصدر في الكويت .

(٩) «منزل الوحي» ص ٢٠٤ و٢٠٥ .

Scanned by CamScanner